

ما يسمى بالنهضة الحديثة

النهضة الحديثة - إنها الميلاد المتكرر للعصور القديمة . فبعد سقوط القسطنطينية في قبضة الترك عام ١٤٥٣ ، حمل العلماء اليونانيون المهاجرون لواء الفكر القديم إلى فلورنسا ، وأضاءوا بنور تراث اليونان ظلمة أوروبا في القرون الوسطى . وعلى هذا النحو فقد دخلت في تركيب معرفتنا بشكل ثابت لا يرقى إليه الشك .

لاغرو ، فإن التقسيم الدقيق والمفيد للتاريخ المطرد ككل إلى مقاطع ثابتة يحقق بالطبع وبوضوح نظرة شمولية مجزأة ونظرة عابرة . إلا أن هذا التحكم اللفظ ، عادة ما يؤدي معه إلى بتر المراحل التاريخية ، المتطورة تطوراً بطيئاً ، قسرياً .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا : ما إذا كان من الجائز أو الواجب ، أن ندرج معارف جديدة ، وثيقة الصلة تاريخياً في مجرى التاريخ وفق تقسيم حتمي آخر .

فهناك محطات دفنت بعمق في تفهمنا التاريخي . عمد فيها مؤرخونا إلى الفصل ما بين اليوناني - الروماني القديم ، والعصور المسيحية الأوروبية ، وبين هذه الأخيرة والعصر الحديث ، وإلى وضعها مع بداية العصر الحديث أو ما يدعى بعصر النهضة في القرنين الخامس والسادس عشر .

وبشعاع الأكاديمية الأفلاطونية ، التي تم تأسيسها على يد ميديشي Medici في فلورنسا أو أثالجديدة ، أيقظت شمس الفلسفة والبناء الفكري اليونانيتين أوروبا من رقدة الشتاء . . . ومن هذا المكان ، أسرعت هذه بحركة الفكر المرافق المسافر إلى سائر أجزاء القارة . هنا في إيطاليا ، تم الكشف عن العالم والإنسان ، وهنا اكتمل الشعور بالتححر ، بعيداً عن هيمنة السلطات الفلسفية باتجاه الأنبلج الكامل للطبيعة المكتشفة الآن . وهنا أيضاً نشأ العلم التطبيقي المبني على التجربة وبدأ مسيرته المظفرة حتى وقتنا الحاضر . فهل هذه الصورة حقيقية حقاً ؟ !

ولدى إلقاء نظرة فاحصة ، يتبين لنا بأن نهضة إيطاليا ضمن هذا التصور ظلت مقتصرة على إيطاليا ، وأن الشيء المزدهر في إيطاليا ، لم تنفصم جذوره عن التقاليد الرومانية أبداً . إن الفكر اليوناني الأوسطي القديم الذي أعاد تكوين فكر العالم الروماني في الأمبراطورية الرومانية ، إلتقى بفكر العلماء في القسطنطينية ، أولئك الذين كان لهم مدرستهم العلمية المستقلة في القرن ١٥ مجدداً عند إرث مشترك ، قديم الصلة ، وفي أوساط ثقافية كانت مؤهلة لاعتناق صيغه وأشكاله وللسماع بالأخذ عنها بالنظر لما تتمتع به من نفوذ . فما اعتقد وفهم على أنه إحياء للأفلاطونية ، شق طريقه في واقع الأمر على يد Cicero ، اللامع ذائع الصيت ، والأفلاطونية الحديثة لأفلوطين المتحرر ذي أصل مصري ، إلى المدرسة الفلسفية عبر دورة بعيدة ، أكثر مما شهدها بواسطة أفلاطون ذاته . وهذان الرجلان على اختلافهما الشديد ، إنما سكبا في إنائهما ما كانا يوزعانه من فكر أفلاطوني . ولقد احتل الوعاء الروماني القديم منزلة الصدارة في عملية تزيين حياتية وحضارة حافلة بالفكر . على أن من دواعي دهشتنا ، ما تلقيناه من اعتراف مفاجيء جاء على لسان عدد كبير من العقول الرائدة للوثبة الحضارية الحديثة في إيطاليا ، بأن الأفكار الحاسمة إنما سالت اليهم عبر قنوات فلسفية ألمانية . أجل ، إنهم لا يترددون بالإعتراف وبحماس ، بفلاسفة ألمان من أمثال كريس Kues الذي احتل أعلى المناصب لدى الكنيسة ، وإلى اعتبار كويسانوس Cusanus ، بمثابة أستاذ لهم ، وبالتالي إنهم

وريشون لتيارات فكرية أوروبية أخرى .

وبالمقابل فإنه لم تفد عبر جبال الألب باتجاه الشمال سوى بعض العناصر الشكلية المحدودة في القوالب والمفاهيم والأساليب . زينت على أية حال واجهات الأوساط الشعبية وأفكارها ، هذا في الوقت الذي واصلت فيه الحياة نموها المطرد من وراء ستار الزينة . وبالترجمة العقيمة لقدماء اليونان ، قلما هبت ريح تحررية على صالونات الفلاسفة الإنسانيين ، الذين أفلتت منهم السلطة اللاهوتية السابقة وفلسفتها البالية حول حقيقة الحياة في عالم الحكمة عند الأقدمين . عندها استبدلوا النظريات الجامدة السائدة في ذلك الحين بأخرى حديثة فقط ، لكنها نظريات أثرت تأثيراً أقل مما كان يتطلبه التطور الجديد بكثير .

وحرية الفكر المزعومة الجديدة للنهضة الحديثة ، سرعان ما أفلتت في المجتمعات التي تعتنق الخرافات وتسيطر على ذهنياتها بعض المعتقدات . ولعل أكبر منجزات القائلين بالمذهب الإنساني ، الذين عكفوا على ترجمة المصادر اليونانية الآن ، إنصبت على ميادين المعرفة اللغوية . وقد دقق الباحثون النظر في قيمة النص الفنية ، ولم يمعنوا النظر في المضمون . ذلك أن عدداً كبيراً من الأعمال اليونانية والإغريقية لـ: أيوكيد ، جالينوس وبطليموس ، وغيرهم ، والتي أصبحت الآن سهلة المنال من لدن متعلمي بيزانطة ، تقادمت في تفاصيلها ، بل وتم تجاوز بعضها من قبل العرب الذين أمسكوا بزمام التراث اليوناني على مدى مئات السنين وواصلوا السير فيه وتعدوه ، أجل من هناك كان البدء ، وانتهى بالأوروبيين الذين اقتفوا أثر العرب كما سنرى . غير أن علم ما وراء الطبيعة خلال هذه الفترة لم يتلق من النهضة الحديثة والإنسانية مستجدات هامة تتصف بالعمق . إن تياراً فكرياً شديداً واصل اندفاعه تحت السطح ، من الينابيع التي تفجرت في أوروبا في القرن التاسع وظهرت قوية في التصوف . ذلك أن أوروبا عاشت - وهو ما لم تكن لتدعن له في المراحل التاريخية المعتادة - عاشت قروناً طويلة قبل عصر النهضة ذاك ، نهضة أبعد أثراً ومدى في كثير من المناحي ، التي وضعتها لها طرق التحويل للقرن المقبل ، والتي

لا بد وأن النهضة الإيطالية الحديثة استفادت منها بقوة . ميلاد جديد أثر في أوروبا والعالم لمدة أطول ، وأكثر عمقاً مما اتفقنا على تسميته بالنهضة الإنسانية .

وعلى النقيض الصارخ للقوى الفكرية السائدة - الكنيسة والفلسفة - وتحدياً لهما ، وهما اللتان رعتا الفكر الأوروبي وضغطتاه بين ثفالي الرحي ، فقد بدأ في القرن التاسع إنقلاب عملت على استدراجه الشخصيات وبعض المراكز الفكرية في غرب أوروبا خلال القرون ١٢ ، ١٣ ، و ١٤ . وهو فكر جديد شد إليه الأنظار في رفض قاطع موجه ضد السلطات التي تدعي لنفسها كل الحقيقة أياً كانت صفتها : ضد الإنجيل ، الآباء الروحيين وأساتذة الكنيسة ، وضد الأفلاطونية الجديدة ، والأفلاطونيين المسيحيين الجدد ، وضد أكبر صنم لسائر الفلاسفة ، أرسطو ، : فكر جديد ذو جذور ضاربة القدم ، تحرر من نماذج التفكير الغربية المستحدثة ، وميلاد ثانٍ وجديد للفكر الأوروبي العريق .

« في أوروبا ، بدأت بومة (المينرفا) أول طيران لها في الغسق »^(١) . ذلك ما أثبتته هيجل ، ملتمساً العذر لتخلف أوروبا العلمي . والحقيقة - كما سنرى - فإن أول خفقة جناح لها ، كان في وضع النهار .

وقبل أن ندلف إلى الأماكن التي ولد فيها العلم التطبيقي الأوروبي ، ينبغي أن نضرب في الأدغال أولاً ، وأن نتأمل الموانع التي أعاقَت عملية الفقس وأوائل خفق الأجنحة ذاك طوال هذا الوقت . بحيث نلتمس عذراً لمسيرة عطش مجدبة ، وإلى أن يتاح للحادثة المنتظرة الشروع أمام ناظرينا .

«إعاقَة العلوم الطبيعية»

الموقف المسيحي من الطبيعة والبحث العلمي

قبل أن يتمكن الفكر الأوروبي من الإعتماد على نفسه بالتطور الذاتي المطرد ، رسمت له القيم والمفاهيم الكونية الدينية الوافدة من الشرق ،

(١) نسبة إلى رئيس أساقفة باريس في النصف الثاني من القرن الثالث المسمى Dionysius ، وعنه الأفلاطونية الجديدة ، والأفلاطون المسيحي الجديد Pseudo —Dionysmus .

المسارات التي ينبغي أن يتحرك فيها بعناية . وقد جاء أن الإيمان (العقيدة) ، هو الحق الوحيد ، الجامع البسيط المترتب على عائق الإنسان . كما وصف الأب الروحي - تيرتوليان فضول العقل بأنه إثم ، فضول فاحش .

والإيمان ! هو الشيء الذي منح الإحساس بالأمن وسط كل أنواع اللاأمن في أوساط المضطربين ، وبدل الوحشة بالأنس ، والخوف من النهاية بالمعاناة من الوجود . لقد قدّم اليقين بالخلاص رغم انقطاع الرجاء في عالم جاحد ، مفتن ، مذبذب ، ضائع . والإيمان كذلك : هو أن لا ترتاب وأن لا تسأل .

أولست الشهوة ، وهي الأكل من شجرة المعرفة ، بقصد الارتقاء إلى مستوى الله ، هي الخطيئة التي هبطت بالإنسان إلى الأرض ؟ فمذ خطيئته الأولى في الجنة ، حظر الإنسان على نفسه بعدها أن يدعي معرفة ليست من حقه - ذلك المذنب ! - وكان حرياً به أن يسعى إلى النجاة بروحه بدل أن ينحرف بالرغبة الجاحمة الخاطئة في معرفة المزيد .

أولم يصنف الله المعرفة في الدنيا بأنها غرور ؟ ونهى بولس الرسول عن أي نوع من أنواع البحث عن الحقيقة في هذا العالم ؟ . لقد جاء : «سأبدد حكمة الحكماء وأبذ معرفة العارفين» - ما يبدو في العالم على أنه سخف ، إختاره الله ، كي يشهر به الحكماء .

فإلى جانب الطريق الوحيدة التي تزكي الروح ، كان ثمة طريق أخرى خاطئة ملحدة ، أي البحث عن الحقيقة في مكان آخر غير ما أوحى به من السماء ، حجج سوف تغرق اكتشاف الطبيعة في التخلف والنقمة . ذلك أنه بعد ظهور السيد المسيح ، لم يعد من مهمتنا - كما أوضح تيرتوليان بجلاء ، لأولئك الذين لا يريدون أن يكتفوا - فشدّهم الفضول إلى البحث ، بعدما تنزل الإنجيل . ليس العقل البشري وحده ، إنما الوحي الإلهي هو القادر على إضاءة الروح .

لقد قالوا : إن استعمال قوى العقل البشري في الكشف عن الطبيعة وأسرارها ، بدلا من تسخيرها في خدمة الأديان السماوية هو سوء استعمال لها ،

لتلك القوى ، . لقد اعترف هوميروس ، بعد صراع طويل مع نفسه وبندم شديد ، أنه طرح جانبا محاولة الغوص في الحكمة اللاروحية لكتابات الوثنية ، حيث قال : « أيها السيد ، لو عدت إلى قراءة تلك الكتب الأرضية مرة أخرى ، فإنما أنكر بذلك وجودك ! » . لأنه لو تسنى التعرف على الحقيقة عن طريق تلك الدراسة ، المتداولة ، لوجب إذاً العثور عليها . وحيث أن ذلك لم يحدث ، رغم الوقت والجهد الكبيرين اللذين بذلا في هذا الصدد ، فمن الواضح إذاً أنه ليس ثمة حقيقة ! كما قدّر المعلم الروحي لاكتانيوس .

لقد قدم الإنجيل والآباء الروحيون منذ زمن بعيد معلومات عن كيفية بناء العالم : الأرض والسماء ليستا كرويتين (مستديرتين) ، فإن لها شكل زوايا الخيمة المقدسة . في الكتاب المقدس (الإصحاح ٢٢) ، بأن الرب أسدل السماء كما تسدل الستار ، ونشرها كما تنشر الخيمة كي يصار إلى السكن فيها . « وهذه الخيمة السقف مغطاة بالماء طبقاتاً لما جاء في التكوين ، الإصحاح الأول ٦٧ . وقال الرب : ولتكن سترّة بين المياه . وخلق الرب السترة وفصل الماء تحت السترة من الماء فوق . . » . وسطح الأرض حاد الزاوية ، مائل من الشرق نحو الغرب . فحسبما جاء على لسان الواعظ شالومو ، فإن الشمس (تغرب) وتسرع نحو المكان الذي أشرقته منه . وبحيث أن بعض الأنهار تنحدر من الجبال ، وبعضها يصعد نحو القمم . وبالنسبة للبعض فإن الكرة الأرضية هضبة وبالنسبة للبعض الآخر من أمثال هرابانوس مادروس ، أسقف مدينة مانيز في حوالي عام ٨٥٠ ، هي قطعة على شكل إبطار شطفت بماء المحيط، لكن ليس لها شكل الكرة على الإطلاق . لذا فقد قرر الأب الروحي أوغسطين «بأنه لا يمكن أن يكون لها وجود^(١) ، لأن الكتاب المقدس، لم يشر إلى جنس من هذا النوع في سلالة آدم » ، وبذلك حسم التأكيد الوثني القائل بكروية الأرض - هل من الممكن - يتساءل الأستاذ الروحي لاكتانيوس أن يكون

(١) Antipoden : لا وجود لهم ، أناس آخرون يسكنون الأرض مضادون لنا بأقدامهم لأن الأرض كروية ؟ ! والأب أوغسطين - هو كاثوليكي ، أحد الروحيين البارزين عاش في شمال أفريقيا في القرن الثالث (٣٥٤) وتوفي عام ٤٣٠ .

الإنسان على هذا القدر من الضحالة بحيث يعتقد أن البذار والأشجار تتدلى على الجانب الآخر من الأرض ، وأن تكون أقدام الناس أعلى من رؤسهم ؟ مئات السنين من نضج البشر العقلي، كالذي بدا في اليونان ومراكز الفكر الإغريقية، أزاحه مثل هذا التفكير ، لتعود النظرة الساذجة والتفكير السحري في الأرض .

هل أرادت القوى الروحية في تسليمها المتحمس للهدف الأعلى من المعرفة الإلهية حب الظهور ؟ وربما أرادت إنصواء مؤسسات تعليمية فلسفية صارمة تحت سقف اللاهوت الذي به ارتبط كل شيء ، شائخة - ككنائسهم - في ظلها ، الهندسة الطامحة للسماء ، وفي جميع مراكز المعرفة حول الأرض وكما هو أرضي أغرقت مستوى المعرفة ، وكما أراد أوغسطين : نشأ بدافع الفضول المريض ، مجرد النزعة إلى التجربة والإبتكار ، وبها ظهرت إحدى أخطر صيغ التجربة ؟ .

● أينما وضعت المسيحية قدمها . في الإسكندرية وبيزنطة ، في اليونان وروما ، في فرنسا وبريطانيا ، أدت إلى تقلص مروع في الثقافة . في هذا الوقت بالذات ، أخذت حضارة الأمبراطورية الرومانية المتدهورة ، منذ هانيبال وتحت حكم تيودوريك ، العادل الحكيم ، بالصعود التدريجي وبلا سابق مقدمات ، للخروج من الوادي السحيق الذي تردت فيه ، وأخذت القيم الحضارية مجراها من جديد . ولقي المتعلمون الإحترام ثانية ، ولقوا التشجيع من قبل الدولة . وأعيد فتح مدارس الأيتام الملكية ، وصدر الأمر بالتوسع فيها . وفي محاضرات مفتوحة ، وفي ظل حكومته المتسامحة ، جرى تعليم مؤلفات هيبوقراط وجالينوس ، وانضم المثقفون القوط كأطباء طالين للعلم . وزاولوا الفيزياء والفلك ، واستمرت النهضة الفكرية حتى بعد موت تيودوريك . وبعد فترة النقاهاة تلك والنمو الملحوظ ، لاح في الأفق ما يشبه الوعد بمستقبل له ، وعد بما كان قابلاً أن يكون . فهل كان لمثل هذه الآمال العراض أن تظهر ، لولا وجود حتى قدر كبير من الميل متخفياً في البذور ؟

والفانداال أيضاً - إلى جانب الرومان - احتضنوا المنابر البلاغية والمدارس

النحوية . ولقد كان بينهم الكونت سيجتوس ، داعية للفن الشعري وشاعراً أيضاً . ونفس الشيء بالنسبة للملك الفرنجة شلبريش ، الذي نظم قصائد ونبذاً حول الإخفاق في الدفاع عن فكرة (١) الثالث . فيها يتعرض لقضية تصور الرب كشخص .

لقد شرع الجرمان ، حيثما تواجدوا ، في تبني الثقافة الأدبية اللاتينية . وسواء لدى القوط الغربيين ، أو لدى الفرنجة ، فقد وجد في الأوساط الحاكمة والإدارية ، بل والتجارية أيضاً ، متلمذون غير متخصصين ، عرفوا بالكتابة والقراءة والحساب والقانون . ولقد تحركت همّة المعلم تحركاً كبيراً تحت حكم اللانجوبارديين ، الذين لحقوا بركب السابقين في التحرر من سلطة الكنيسة ، وما لبثوا أن قاموا بدور الناقل لعلوم الغرب المبكرة .

وفي سائر أنحاء الأمبراطورية الرومانية ، حاول الأمراء الجرمان ، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم ، تيودريك الكبير ، إحياء التراث الوثني القديم ، ذات الشيء الذي فعله الخلفاء العرب خلال القرن الثاني . لكن الأمبراطورية الرومانية ، في ذلك الحين ، كانت قد تحولت إلى أمبراطورية مسيحية . كما أن الأباطور الروماني الإفريقي أوغسطين ، الذي كان السباق ، واحتل المنزلة الفكرية المطلقة ، هو الذي أذن بالفكر في الغرب . وروما الفكر ، حددت من الآن وصاعداً ، الوجهة التي ينبغي أن ترسل إليها بشرية في كل أرجاء المعمورة . وفي فرنسا حيث وجد سيدونيوس أبوليناريس حياة ثقافية نشطة بانتظاره ، وهام في حب رسائله التي كتبها عن النجاسة الملكية ، الفرنسي أوبانيتوس من القرن الخامس ، تفجرت كذلك في بريطانيا ، وبعد مقابلة إرسالية الكنيسة ، الثقافة الهلينية ، اللغة اليونانية والإجتماعيات الرومانية المألوفة على مسرح الحياة . وقد حاولت روما الروحية إقصاء عناصر التراث الوثني هذه بالذات ، والقضاء على أولئك الذين تلقفوا تلك الثقافة . وقد اعتبر

(١) - أي الإتحاد الثلاثي الله - الابن - الروح القدس .

القديس هيروديموس الفكر اليوناني لعنة على البشر ، فترجم الإنجيل إلى اللاتينية ، بحيث قلبت «الفولجاتا»^(١) Vulgata ، كلاً من هوميروس وفيرجيل رأساً على عقب .

وليس ثمة ما يجعل (سلامة النية هذه) أكثر جلاء وإثارة من الحرائق المدمرة ، وأعمدة الدخان المتصاعدة فوق الاسكندرية ، كنز المعرفة اليونانية والهيلينة على مدى مئات السنين . الآن جنباً إلى جنب مع روما ، المقر الرئيسي للكنيسة المسيحية .

إن السماء تصطبغ باللون الأحمر فوق عاصمة المعرفة على دلتا النيل . هذا في الوقت الذي تنهوى فيه دُور لا تعوض من الأشعار والفلسفة اليونانية والعلوم الإغريقية ضحية لعمليات إبادة من تدبير التعصب المسيحي . إن إحراق مكتبة الإسكندرية الكبرى ، والذي يصرون بعناد تحميل العرب مسؤوليته ، رغم أنهم فتحوا المدينة بعد انقضاء أربعة قرون على ذلك الحدث ، كدليل على بربرية مزعومة تحركها شهوة الانتقام بالتدمير ، قد دلّ - هذا الحريق - على أنه - بعد دراسة وافية - هو من أعمال الإبادة المسيحية ، فضلاً على أنه دعاية موجهة ضد الإسلام .

وفي عام ٤٧ قبل الميلاد ، وفي أثناء مرابطة يوليوس قيصر ، قدمت ٧٠٠ لفافة من كتب مكتبة الإسكندرية طعماً للنيران . لكنه في القرن الثالث ، وضعت خطط التدمير المنتظمة . فقد قام بطيريك مسيحي بإغلاق المجمع العلمي وطارد أعضائه . وفي عهد الأمبراطور البيزنطي فالنوس عام ٣٦٦ ، تم استبدال المجمع العلمي بكنيسة ، ونهبت مكتبته وبددتها . وتعقبوا فلاسفتها تحت غطاء وبتهمة السحر والشعوذة . وفي عام ٣٩١ ، إستصدر البطيريك تيوفيلوس إذناً من القيصر تيودوسيوس يقضي بتدمير أكبر وآخر محج للعالم القديم ، وهي أكاديمية الإسكندرية الكبرى (- السيرايون -) .

(١) Vulgata : الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس لهيروديموس - ١٥٤٦ -

السيرابيون - وبتقديم ٣٠٠ لفافة طعماً للنيران . وبذلك تعرضت البشرية لأفدح خسارة في تاريخها ، ولأبشع مأساة فكرية وإلى الأبد . وبذلك العمل لم تنته أعمال الدمار من جانب المسيحيين المتعصبين . فها هم أولاء صعاليك ذلك العصر (الزمان) كالمنتشين بالشراب يداهمون ويخربون . إن صديق البطريك سيفيروس - آنيوشين يعترف دونما حجل بأنها - الصديقين - وكنا عضوين عاملين في مجموعة إرهابية مسيحية في الإسكندرية - قاما في القرن الخامس بمحاربة العلماء الوثنيين وبمهاجمة دور الثقافة ، وإنهالوا ضرباً على صور آلهتهم ، ودمروا مكتباتهم ومنشآتهم واختفى بذلك ملاذ إثر آخر من معاقل العلم الهيليني .

وفي عام ٥٢٩ ، تم إغلاق آخر مدرسة فلسفية في أثينا . وفي عام ٦٠٠ أحرقت مكتبة بالاتين التي أنشئت في روما من قبل أوغوستوس ، ومنع تداول المؤلفات الكلاسيكية عامة ، والرياضيات بصفة خاصة . أما باقي المؤلفات القديمة الخاصة بالبناء ، فقد خفض سعرها تخفيضاً مزمياً مهيناً .

إن المعرفة الروحية المسيحية ، تبعاً لطبيعتها ، توجهت نحو أهداف مختلفة تماماً ، لهذا السبب ، لا أكثر ولا أقل . لقد رسم الأب الروحي أوغسطين في منتصف القرن الخامس قطبي المعرفة بقوله : « أتمنى أن أتعرف على الله والروح » . هذا في الوقت الذي كان يوبخ فيه البشر الغارقين عمداً بخطيئتهم المتوارثة المتمثلة في الطمع الزائل للتطلع نحو المعرفة من أجل المعرفة . وبعد ٨٠٠ سنة من ذلك التاريخ ، شكك توماس فون مأكوين في كل محاولة للبحث عن الحقيقة المعنية بالأشياء السفلى . إتهمهم بالخطيئة وبالمرور عن الدين . وفي التفكير بالحقيقة ، أي الله ، يكمن في نظر معلمي الكنيسة وأمراء الفلسفة ، الهدف الأسمى والوحيد لبني البشر . بها يتقرب المرء من الله والملائكة ، ولبلوغها لا حاجة به إلى أي عون خارجي . وبغير هودة معتادة ، يعرب لأوروبا ، لتعاملها بالعلم ، وبحثها عن المعرفة بنية حسنة : « إن أدنى قدر من المعرفة ، التي يمكن لأحد أن يعرفها عن الأشياء السامية ، هي أجدر بالمعرفة من

معرفة محددة بالأشياء الدنيا » . وهكذا يضيق الحد الفاصل بين الأشياء السامية والأشياء الوضيعة التي مرغت في مستنقع المعجزات والخرافات ، والتي لا غمك حتى يومنا هذا تصوراً لحدودها .

لقد أعدوا للشعب البسيط النائي في معتقده عن التأمل الإلهي ، أساطير مقدسة مقتبسة من الخرافات اليونانية الرومانية والشرقية القديمة ، سرعان ما تترعرع فيها العقيدة الدخيلة على حساب التأمل السليم . وهكذا ، فإنه حين ينقل إلينا من القرون الوسطى بلغة مترجمة إلى الألمانية مثلاً خبر مرغوب القراءة ومستحب حول طبيعة الأسود النمال ، ذات البنية الفخمة نفهم : « أن حيواناً يولد من النملة والأسد ، يطلق عليه إسم الأسد - النملة ، وإن هذا الحيوان سرعان ما ينفق فور ولادته لأنه لا يستطيع تأمين الغذاء ، والسبب ، لأنه مكون من طبيعتين - فحين يرغب في ازدياد اللحم ، تتراجع طبيعة النملة التي تفتتح شهيتها للحبوب ، فإذا أراد أن يتغذى على الحبوب ، قاومته طبيعة الأسد . وهكذا ، فحيث أنه لا يستطيع أكل اللحم ولا الحبوب ، فإنه يموت . مثل هؤلاء مثل أولئك الذين يريدون الإمثال لأمر سيدين ، الله والشيطان . ففي الوقت الذي يعلمهم الله أن يتطهروا ، يوسوس لهم الشيطان لأن يكونوا فاجرين .

إنه بمجرد التفكير بالله ، وبالروح ، يكون الإنسان قد أقر للطبيعة بمعنى ، كائنات إلى ما يسمو على الإدراك ، كرمز مفضل ، للربط بالخلق . ولكن ليس بحال من الأحوال من أجل إرادتهم الخاصة .

وكتب ضارب المثل يقول : الأرنب عداء جيد . حين يطارد يفتر في الأرض الصخرية والجبال الشاهقة . وبعدئذ تصبح الكلاب كلها مجهدة في نظر الصياد ، وليس لها القدرة على اصطياده . لكن الأرنب حين يتجه إلى أرض منحدر ، لا يستطيع الجري على ما يرام ، لأن ساقيه الأماميتين مقيدتان . وفي لمح البصر ينقض عليه الكلب ، وهذا حالك أيضاً أيها الإنسان .

تطاردك القوى المعادية من أجل الصيد ، الشيطان . إبحث عن الصخر المرتفعات التي قال عنها داوود : أرفع عيني نحو الجبال التي يأتيني منها المدد ، لأن الشرير حين يرى الإنسان ينظر إلى أسفل ، وقلبه مشدود إلى الأرض ، فإنه لا يدنو منه إلا ليكون أكثر قرباً بأحاييله . لكنه حين يرى أن المرء يسير حسب مشيئة ربه باحثاً عن الصخر ، حينئذ ينصرف الشرير إلى شأنه .

موقف الأفلاطونية - والأفلاطونية الحديثة من الطبيعة والبحث العلمي .

على أنه ، ليس الديانة المسيحية وتوجهها إلى الله ، أو تطهير الروح البشرية الوارثة للخطيئة ، هما الوحيدتين اللتين صاغتا الفكر في مطلع القرون الوسطى ، بل اللاهوت المسيحي في صورته التي قدم بها من قبل شخصيتين هما : بويثيوس (٤٨٠-٥٢٤) ، رجل الدولة والفيلسوف ، صديق الملك تيودريك ، الذي أعدم بتهمة التحريض في بافيا عام ٥٢٤ ، ووجد السلوى أثناء سجنه الطويل في الفلسفة المصبوغة بالصبغة الأفلاطونية الجديدة . والشخصية الأخرى ، هو أوغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠) ، المعلم وصاحب النفوذ في الكنيسة الكاثوليكية الذي ينحدر من أصل أفريقي^(١) هذا الأفريقي ، تلقف كل التيارات الفلسفية ، الهيلبته الصادرة عنه ، وفي حركة مضادة له ، الوافدة من الشرق ، المختلطة بها التي غمرت حوض البحر المتوسط ، والتحمت في حركات جديدة أثناء شبابه . وبنفس الحماس الذي دعا به أوغسطين للتعاليم المتطرفة والديانة المانوشوسية^(٢) ، اللتين بشرتا بحتمية الخصومة بين الثنائي ، الخير والشر ، ومن ثم - وقد خاب ظنه - وصفه المتشكك لكل ذلك بعد تسع سنوات ، إنغمس في وطيس الأفلاطونية الجديدة ، حتى حوله بولس إلى النصرانية التي ما لبث أن صهر في فلسفتها من كل شيء شيئاً قليلاً .

لكن الأسر الصارم كان سواء للإثنين معاً - بويثيوس وأوغسطين - في

(١) من قسطنطينية بالجزائر .

(٢) المانوية .

الأفلاطونية الجديدة التي قدرت على طبع وعي أوروبا المسيحية بملاحمها الغربية في الفترة الممتدة بين القرن الخامس والقرن الحادي عشر .

وهو أيضاً ، عمل من جانبه على إعداد خليط من التعاليم الأفلاطونية ، الارسطوطاليسية ، الأرسطوطاليسية ، والقيثاغورية ، ضفرها بتعاليم يهودية وأفكار مسيحية في صنيعة معتقد غير قابل للإنفصام تقريباً . ولقد أفلح في ذلك كما لم تفلح الثنائية^(١) الصارمة التي كانت قاسماً بينهم . فقد وضع أنموذجاً من جزأين فوق كل الوجود ، وهو الذي قسم إلى إثنيين ، جزأين مختلفين في القيمة والمستوى ، في حيز القدسية والنور والخير ، وحيز الخطيئة والظلام والشر .

إن فلسفة الإنحطاط هذه لعالم البحر المتوسط ، المتوقد شوقاً إلى الخلاص من ظلمة المادة ، ظهرت باسم أفلاطون (٣٤٧- ٤٢٧) قبل الميلاد . وذات الشخص الذي عاش في فترة الانحطاط التي دبت في كيان الدولة اليونانية القديمة ، كان هو نفسه الذي أضفى على الفكر المزدوج ذلك التعليل الغيبي العميق ، وهو من طرز التفكير البعيدة كل البعد عن أنماط تفكيرنا ، وهو ما يؤكد دوماً التدينس لروحته المقدسة .

ونمط التفكير هذا ، يبدو لدى أفلاطون على النحو التالي : أنه يفرق ما بين الوجود الصادق ، وهو الدائم الذي ليس له ما بعده ، وبين ما هو صائر ولكن لا وجود له أبداً .

إن مملكة الفكر ، المضيئة الرحبة ، المنتظمة ، الأبدية التسامي هي الحقيقية بالنسب إليه - والمملكة الأخرى ، ذات الحركة الدائمة ، الخاضعة للضرورة والتحول ، المادية ، المتعارضة مع الله لا وجود لها قطعاً ، بلا حقيقة .

والمادة تحظى بنصيب من الوجود أولاً ، وبطريق واحدة فقط ، حين تتمثل

(١) Dualismus فكرة الخير والشر اللذين لا يلتقيان .

الأفكار دون أن ترسخ لها تماماً ، حتى لو عارضت طموحها . وهكذا ، فإنها تصبح بحق خليطاً من الكائن وغير الكائن ، من الظاهر والموجود ، من العقل والإدراك والإلزام . لكنها كخليط ، تظل غير نقمة ، مبتورة ، ناقصة ، مآها إلى الزوال ، نصف حقيقة ، مشابهة للظل . إن هوة سابقة تفصل ما بين عالم الفكر والمظهر - وبروح الإنسان التي جزءها السفلي مظلم وفان ، وجزءها العلوي خالد ، وبين الجانب الأخرى من الفكر ، روح إلهية ساكنة .

وتحت تأثير الاستخفاف الشرقي الصارخ بالإنسان ، بالجسد ، والطبيعة ، فالعلاقة بين الجسد والروح تبدو على نفس صورتها لدى أسلاف أفلاطون - الفيثاغورثيين - كسجن للروح المتداعية من مملكة الأفكار المجردة - كسبب خلف كل الشرور ، المترامية على الشهوة ، وكمعوق لكل معرفة . وأفلاطون يتوج قوله ، حين يعلن في آخر عمل له وهو القانون : بأن قمة الشرور لديه ، تتأق من غريزة مريضة . وهذه الغريزة محصلة لجرائر قديمة ، تنامت في الإنسان . ويستدرك : إنها القطرة الشرقية - الغربية في الدم اليونانية .

إن التفريق الحاد لهذا النمط من التفكير الأفلاطوني المزدوج ، ما بين الوجود الصادق الكاذب ، مجرد مادة شديدة التبدي ، هذا التفكير لم يكن مقتصرًا على أفلاطون وحده . إنها ترمز إلى بناء فكري خاص لتراث اليايسة اليونانية الأوسطية - خلافاً للتراث الإغريقي - اليوناني ، الذي زحف مع الهجرة الهندية - الجرمانية حتى الأشرطة الساحلية لآسيا الصغرى ، والذي يعرف لدينا بإسم فورزوكراتيكر Vorsokratiker وفي عصري بارمنديس ، حوالي ٥٤٠ ق. م ، وهيراقليط ، حوالي (٤٨٣ - ٥٤٤) ، وجد هذان النمطان الفكريان اليونانيان المختلفان جوهرياً ، وجداً ممثليهم القدامى . وقد تجلّى ذلك في نظرهم إلى الطبيعة ، التي اختلفت إزاءها العقول ، طالما أن الفكر اليوناني كان على قيد الحياة بعد . وحيث أن أسلوب التفكير الذي عُبر عنه فلسفياً على لسحان بارمنديس وأفلاطون ، قد زاول تأثيره في أوروبا ، وكان من حيث نظرته إلى الطبيعة داعياً أو مثبطاً ، فإن من المفيد مساءلته وبالتفصيل عن طبيعة معاشته وفهمه للعالم .

لقد كان تفكير بارميندس ممثلاً لتفكير كل من أفلاطون وفيثاغورث ، لكنه من غط خاص جداً^(١) . أن طبيعة العالم لدى هؤلاء اليونان أنه Kosmos ، كون ، ومعناه النظام . والمقصود بها هنا أساساً : نظام يحيط به البصر ، أي نظام الكائنات المحاطة بحدود واضحة .

وفي شعره ، يبذل بيرمانديس جهداً لا نظير له ، لكشف النقاب عن أن كل تبدل وتحول في الطبيعة ، كما يبدو للحواس ، لا يعدو كونه نفيًا للوجود وبمجرد شيء صوري .

ومن الواجب هنا ، أن لا نتجاهل منطلقات هذا التفكير ، الذي كان له تأثيره الشديد على الفكر الأوروبي هنا وهناك .

ولرؤية الحقيقة هذه أسبابها العميقة في طبيعة ومعايشة الأرسطيين . فما يحتم على صدورهم ، وما يطبع كل تفكيرهم ، إن هو إلا الشك الدفين إزاء اللا محقق ، غير الواضح ، عديم الهيئة . أجل ! النفور المتأصل العميق من كل ما هو قاس ، موحش وقبيح في الطبيعة . البشر الذين ملأهم بالجور تحت رحمة التعسف والشهوة . وهذا هو الرعب الذي لا حول فيه أمام كل ما هو مجهول ، جارٍ ، أبدي التجول ، الذي لا يمكن تجاهله ، الذي ينفخ فيه ريح الفناء والموت - هذا هو التقرز من الأحاسيس الجاحمة ، والرغبات الصانعة للقبح ، التي يخشى معها الإفلات من موقعه الثابت في المجتمع ، وكذلك الخوف المثير للمغالطة مما هو غير محدود ، لا نهائي ، الذي يرهبه بالفراغ الهائل ، المخيف ، المفزع لأن يفقد ذاته . تلك هي الرغبة ، في الأحيان التي تضمن له الوضوح والإنضباط فقط ، والتي لا سبيل إليها إلا بالإدراك الواقعي الثاقب . لا سبيل إلى نجاة من القوة التي ترهبه وتستدرجه إلا بالعقل . وبه أيضاً يتفادى الأخيلة المتحركة المذنبة التي يتعذر لجمها ، التي تحوم فوقه ، وتقهقر حواسه ، وتملأه بالخشية من الوحدة .

(١) بارميندس ، فيلسوف يوناني من إيليا حوالي ٥٤٠ قبل الميلاد .

(٢) صرفنا النظر عن النص الشعري المستدل به لأسباب تتعلق بروق الإيقاع وعدم الإخلال بمعنى النص .

ذلك فقط ، هو الذي يبدو في نظر الإنسان اليوناني هذا ، خيراً وجميلاً
وكاملاً . ما - بأربطة الحدود - يتماسك ويُدرَك بصيغة ثابتة ، بطريق الوضوح
الشامل ، النظام والقاعدة .

هذا فقط ، ما يبدو له كريماً وبالفضيلة مفعماً ، ما يتحقق بالصبر
والتبصر ، وبالاتدال بين الإفراط والتفريط . لأن النظام الحق والتوازن - كما
يقول بيثاغورس - جيلان ومفيدان ، في حين أن انعدام القاعدة والإفتقار إلى
التوازن من جهة أخرى رديئين وغير نافعين .

إن الحقيقة المشبعة بالفطرة ، المطردة النمو بلا تدخل خارجي ، تقلقه .
وقوى الأرض المظلمة وعناصرها غير المتحدة تكدر مخيلته وتجلب لها الخوف .

وبقدر ما حركت الطبيعة حكماء الإغريق ، بدءاً بتالس وانتهاء بهيراقليط ،
كان تفاعل أفلاطون معها ضعيفاً وجاء في سن متأخرة . والفلاسفة الثلاث
متفقون على ذلك تقريباً ، إن الحواس لا تقدر على تمييز (معرفة) الوجود
الصادق - لأنها - الحواس - تخدع الإنسان ، إنها لا تدرك غير الظاهر ، الشيء
المتقلبة في تياره على الدوام ، مما كان ، عبر ما هو كائن ، فيما يؤول إليه . إنها
مصدر المعرفة الضبابية غير الصافية . ونفس النقص الذي يلزم المعرفة الحسية
البشرية ، يلتصق بعالم الظاهر المضطرب ، المتعدد ، المتلون ، المتداخل ، الهائج
النامي ، المتحرك ، المنتظم والمضطرب ، دائم التغير ، فظيعة العفونة .
في «المادة» !

ومن خلال اكتشاف عالم المادة والطبيعة ، لا يتسنى الحصول على
المعرفة . ان التعرف الفعلي على أي شيء لا يتم إلا حين يغادر الانسان
الجسد . لأن الاتحاد بالجسد لا يسمح للروح بالعثور على المعرفة .

إن التفكير الواقعي وحده ، هو الذي يحيط بالوجود الفعلي . ولا يبرز
الكائن من المبهم ، المتغير سوى التفكير المنظم المحدد ، المعرف ، المفهوم . وهو
في تحديده وثباته ، يقترب من الحقيقة : « كما لو كان غير قابل للتصديق من

قبلنا ، بل مجرد كائنات تدعو إلى التأمل . وفي حوار تيمايوس^(١) هنا ، يقدم أفلاطون الحيز الفاصل بين التفكير الأصيل ، واليقين المتور بالطبيعة ، الذي عرقل تقدم العلم التطبيقي الأوروبي بشكل صارخ . أجل ، وحيث أن الروح لا تفنى ، وانها رأت كل الأفكار ، فإن كل البحث والتجربة والتعلم ، مجرد ذكرى . وأن الحس ، التصديق بالحس ، هو الذي يشيهم عنها . لذا فإنه لدى التعرف على الكون . سرعان ما يتذبذب العقل اليوناني التأملي ، وبشكل دائم ، من المسلمات إلى العموميات . فوق الطرق الضبابية لتجربة العالم الواقع الى النظرة العقلانية الخالصة للفكرة المجردة . وذلك الشيء هو الذي يفرز تفرد ، وانجازة الفريد ، وكماله ، ولهذا السبب أيضاً يرتاب ، ويزدري ، ويتجنب الخبرة الملموسة ، والعمل في الحقائق الذي يتطلب الملاحظة المكثفة . مثلاً ينكر على الرجل الحر ، العمل الموكول للعبيد فقط في الحقول ، متمماً بذلك تحليله المستقيم شطر مملكة الأفكار العامة والقوانين . لذا فإن اليوناني يذعن للصيغ الفكرية الهندسية المجردة . ولاشكال الفضاء المثالية ، في الوقت الذي يترك مزاوله الأعمال الحسابية إلى البائع في السوق ، وإن الحساب ، او التسلية بالمعنى الحرفي « وهي ترف فكرخالص » ، حيث يرفه اليوناني عن نفسه بنظرية الأرقام ورمزياتها باللعبة الفكرية مع علاقات المستقيمات بغير المستقيمات ، الأرقام المتجانسة والمتكاملة برتل الأرقام وعلاقاتها . وتطبيقاتها العملية في نظر أفلاطون هي بمثابة إهانة وتلطيخ للرؤية المجردة .

وهذا التصنيف ينطبق على المراتب الاجتماعية بدءاً بالهيئة الحاكمة ، ونزولاً إلى المهن المبتذلة كأصحاب الحرف ، والمهندسين ، ومهندسي البناء ، والفنيين وختاماً بالعبيد . وهنا ، كما في الفكر كله ، يرسم ذاته : إنه الانحدار اليوناني المتميز من القيمة المطلقة إلى اللاقيمة . الذي ، بسقوطه من الله ، مجرد القيمة فوق مملكة الفكر ، يعود أدراجه إلى عالم ظل المادة ، إلى العالم غير الطاهر ، الى الشهوانية والجسدية . ونموذج الانحدار هذا ، التلوث

(١) Timacius ، مؤرخ يوناني (٢٤٥ - ٣٥٠) .

والانحطاط ، يلاقي رواجاً لا مثيل له في الافلاطونية الجديدة^(١) . فهل كان اعجوبة ، إن محب الجمال ، صاحب الشعور المرفه هذا ، ينجل وهو في تساميه وزهده ، إن هو ملك جسداً ؟ لقد اذعن لنموذج الانحطاط هذا ، وهو الذي نهل من المشارب الدينية للشرق المتأجج روحياً ، المدمن للخلاص ، وتدنى لمراتب اضافية أخط : إن الموجود الأزلي المطلق ، الصادق ، الموجود وحده ، الكمال الالهي الساكن في ذاته ، ينبع فيض كماله بالتساوي . وينسكب فضله على الدنيا ، انسكاب شعاع بثر من مرتبة فما دونها . ويخلق بانبثاقه العالم^(٢) . وفي درجات السلم الأخرى الأبعد ، وبحسب بعدها . على أنه في السماوات العلى يغرق الشعاع أولاً في عالم الفكر الذي يحتوي على مملكة الأفكار . ومن ثم يسقط الشعاع الالهي في أفق عالم الروح الأقل كمالاً وكيونة ، الذي ينتمي إلى الأرواح الفردية . ومن هنا ينسكب هابطاً نحو الأسفل في عالم الأجسام والحواس ، نسخة طبق الأصل من عالم الأفكار المدنسة ، العكرة ، المخادعة ، ومنه نزولاً إلى عالم المادة المظلمة العاصية التي تمثل اشد الأشياء بعداً وغربة وضعفاً ونقصاً ، الإنكار المطلق للألوهية والخير : أي الشر الأزلي . لذا فإن الروح ذاتها تصبح شريرة حالما تلامس المادة ، تلوث بها وتلطخ ، وتصاب بالشهوة . بحيث أن الانسان لا يرقى إلى المشاهدة الغيبية لله الأزلي ، إلا حين تحرره بالزهد من الحواس والجسد الدنيوي . وبالسمو الصوفي - التقشفي ، يقترب من الآخروي الأزلي الرائع ، الساكن في ذاته الكامل بلا اسم فوق كل الكائنات .

إن هذا التصميم للعالم كما قدمه أفلاطون باستكانة مزرية في عصر من عصور الانحطاط ، تزعمه في نهاية القرن الخامس الذي غلبت عليه الطبيعة المسيحية الواحدة أحد الآشوريين ، الذي أوصى ، لكي يضمن الهيمنة لتعاليمه المسيحية - الافلاطونية الجديدة ، بين التعاليم المسيحية التي كان يدعو لها

(١) صاحبها من Lyhopolis مصر (٢٠٥ - ٢٧٠) ، أفلاطون .

(٢) Emanation .

ديونيسيوس الأثيني^(١) ، أوصى بالعناية بجمهور متفاعل شديد الاهتمام .

إنَّ ما يدعى بالافلاطونية المسيحية الجديدة ، التي كانت تُدرس في الغرب بعناية ، اُضيفت إلى البناء العالمي للافلاطونية الجديدة أخيلة مسيحية . قدم للانسان الطريد من الجنة ، والذي كان جزاؤه سجن المادة المظلم ، تدرج رتب الملائكة ، والطبيعة المزدوجة . والقى على كاهلها الوساطة بين المذنبين . والقضاء والقصاص للواحد الأزلي بحسب تدرج الرتب في الكهنوت الكنسي . وباستحسان الكنيسة القروسطية لهذه الاضافات ، اكتسبت الشكل الظاهري للمسيحية فقط ، أو الافلاطونية الوثنية القديمة الصبر والتبصر .

ولكن ما الذي حدث بالطبيعة ؟!

كانت في كل رحاب الله ، وفي ذات الوقت مخالفة لله . شريرة دائماً . مادة عفنة . وهي والحال كذلك ، تعني بالنسبة للبشر شيئاً واحداً : وحلاً ، ثقيلًا ، معوقًا ، يشده ويهدده بالابتلاع ، والذي ينبغي التغلب عليه .

والشكل المناقض لذلك تماماً ، هو عالم النجوم ! كانت بمثابة جسم سماوي مرتفع فوق عالم المادة . لقد تحركت - كما يقول أفلاطون - في المثالية البلورية للكرة ، في محيط كامل من آفاقها الشفافة المنتظمة تنظيمًا محكمًا حول الكرة الأرضية - بقدر متوازن ثابت ، مسطح ومتماثل الشكل ومتساوي الأبعاد عن المركز تشغله أجسام بلا خطيئة . وبذلك كان الكون ذاته - في الواقع - منقسمًا إلى فضاءين . في أحدهما الأجسام الطاهرة ، غير المتبدلة ، الخالدة ، المستقرة في وضعها من السماء . وفي الآخر (أي الفضاء الآخر) ، عناصر العالم السفلي ، الزائلة ، دائمة الاختلاط والتبدل .

ولقد كان للأفلاطونية المسيحية الجديدة - لعالمها - ضربٌ خاص آخر من التفاسير : لقد وزعت السماوات سواء منها والنجوم الثابتة أو الكواكب في كل

(١) سبق التعريف به .

مرة بين مستويات من الملائكة ، سيرافيم^(١) وشيروبيم^(٢) . أما بالنسبة للملائكة الآخرين من التنظيم المختلف كالملائكة الرؤساء ، فقد أسندت اليهم إدارة السموات والمحافضة على حركتها . وقد ألحقت بها فيما بعد . ولضرورات مسيحية - تحت الأرض وكنتيجة النزول ، تدرج لرتب الشياطين ، وأبليس منهم ، في مركز الأرض . وكيف تجلت المعرفة بهذه الطبيعة ؟

لقد كان الجسم الدنيوي العفن ، على أية حال ، وليد المعرفة الواقعية ، اليقين بعدم قابلية الحواس للحصول على المعرفة . لكن مسألة الامام بمحيط النجوم وانسجامها ، طبقاً لما جاء في الأفلاطونية المسيحية الجديدة ، فقد ضيعها الانسان بذنبه .

موقف الفلسفة الأرسطية من الطبيعة والبحث

وفي صورة ، أكثر حيوية ، وبأبهة طاغية ، ظهر الفكر اليوناني على أوروبا في القرون الوسطى : في صورة سيد العالم ، ارسطوطاليس (٣٢٢ - ٣٨٤ قبل الميلاد) ، أو بعبارة أفضل : الاسطوطاليسية . لأن تلميذه الكبير ، أفلاطون أيضاً ، كان لا بد وأن يعجب بادخال بعض التغييرات الافلاطونية الجديدة ، المسيحية ، وربما أعجبته الاسلامية أيضاً !!

وقد قام بويثيوس ، ومن بعده يوحنا الدمشقي بقرنين ، أي حوالي ٧٠٠ ، بترجمة بعض اعماله - منطقه - الى اللغة اللاتينية .

(وكأب للجديلين) ، رَسَخ ارسطوطاليس الفلسفة . لقد ايقظ المتعة العقلانية المتوطنة في فرنسا خاصة ، على الوضوح والنظام ، كما ايقظ ولعاً ذهنيّاً فاتراً في فن البرهنة والمحاجة الجدلية المصاغ منطقياً ، كالتحليل ، والتميز ، والمفاضلة ، والاستنتاج ، والتصنيف ، والتي تحولت ، بالنظر لبقائها بدون

(١) Seraphim في الترتيب المللكوتي (السماوي) المكائن بست أجنحة والملاك ، وفي المعتقدات اليهودية .

(٢) Cherapim : ملك أيضاً .

مضمون ، إلى صيغ هشة .

و غالباً ما اعتمد الفكر الأوروبي بادیء ذي بدء على الأفلاطونية . غير ان منقولات فون ياكوب^(١) ، في حوالي ١١٢٨ ، وطوفان الترجمة العربية اللاتينية ، القادمة من طليطلة ، أجلست أرسطوطاليس على العرش الذي كان دون مستوى منطقته المتقدم الرفيع . كما أن تفاسير من ترجم له على اختلافهم ، وشروح المسيحيين ، البرت الكبير ، وتوماس فون أكوين ، نقلوا ، كل على هواه - صورة محرفة .

وأرسطوطاليس أيضاً كان يونانياً مائة بالمائة ، من حيث أنه وُفق إلى فصل الوجود في أضداد بدقة وتأبيد . لكن النّش - كما يقولون - انتهى به إلى مكان آخر . فلقد تمتع - أكثر من أفلاطون - بنظرة خاصة إلى حقيقة الطبيعة ، وإلى الفرد ، وكان يطمئن إلى معرفته بالحدس . لقد وجه نقداً لاذعاً إلى أفلاطون ، كما أنه عضّ النواجذ من الغيظ على كل من سبقه . سجّل مأخذاً على أفلاطون ، أنه أقرّ بحقيقة الأفكار العامة فقط . في حين قلب ظهر المجن لكل ما هو فردي ، حين وصفه بأنه ظل وصوّر وهمية زائفة لا تمت للواقع بصلة . كيف يمكن للحقيقة الفعلية أن تعيش منفصلة خارج نطاق الأشياء والعالم ؟ هل توجد فكرة (الشجرة) كحقيقة ماثلة ؟ أو ليست في حقيقة الأمر إلا الأشجار المتفرقة ؟ (والشجرة) ، ليست مجرد مفهوم ، تخصص به أشياء الطبيعة ، بحسب مشتركات ، وترتبها بغض النظر عن فروقاتها الضرورية ؟

لكن أرسطوطاليس نفسه ، يساوره الشعور اليوناني بعدم الارتياح تجاه كل ما هو محدد ، معين ، هارب ، ومتغير . وكيوناني ، يشاق هو الآخر إلى الثابت ، ذي الحدود والاستمرارية . وضالته تلك ، يعثر عليها في القواعد . إنها تمنح كتلة المادة - المجهولة الشكل - حقيقتها والغاية منها . وعلى هذا النحو ، فكل ما هو (واقعي) يتألف من مادة وصيغة ، وذو منشأ مزدوج . والمادة الهشة بالنسبة له ، تنفّش ريشها حين تتخذ موقفاً معارضاً من القوى

(١) من البندقية .

المتشكلة . وهذا بالطبع يعني ، أن الأمر بالنسبة لارسطوطاليس ، هو خلاف لما هو عليه لدى أفلاطون ، وهو ليس عيباً خلقياً : إن المادة - على هذا النحو - وإن كانت في واقع الأمر غير مكتملة تماماً ، لكنها غير شريرة : هي في ذاتها بلا حقيقة ، لكنها تمتلك « إمكانية » مجهولة ، كقوة واقعة نحو تأكيد ذاتها وبمساعدة من الصيغة ، بحيث يتبقى للمادة المشكلة دائماً ، بقية باقية مؤسفة من الأرض بالمصادفة ، شائبة من النقيض الدائم . إن المادة منفصلة ، عاجزة ، عديمة القدرة ، وعديمة الجدوى .

على أنه ، وإن سار ارسطوطاليس إلى الميدان ، ثائراً ضد أفكار معلمه ، فإن صيغة تشابهت مع الأفكار الافلاطونية ، حتى في أدق ملامحها . إن الحد الفاصل الذي رسمه أفلاطون ، بين أفكار العالم الآخر ، بما فيها فكرة الخير ، التي تعلو على كل شيء ، أي الله ، وبين عالم الظواهر الطبيعية . وهذا الحد النهائي الفاصل ، وجب ، لدى ارسطوطاليس ، أن يُرسم أولاً ضمن عالم الأشياء التي تربط بين المادة والصيغة . لقد انحصرت مهمته خاصة ، في انقاز علاقة أحدهما بالآخر داخل نطاق الحقيقة . لكن افلاطون لم يستطع اخفاء اشتمزاز اليوناني من المتبدل ، اللامستقر أمامه ، ورغبته في الوضوح والشكل ، ورسم الحدود الفاصلة . وهو أيضاً أضاف الى الصيغ وجوداً مستقلاً ، تخلق من فوقها الهيئة المطلقة العليا . وهي ليست متحدة بالمادة ، وليست في حاجة لها ، ولا تتأثر بالاكمال ، الذي يلزم كل صيغة من صيغ اتحادها بالمادة .

هي وحدها الروح الصافية ، والفكر الأصيل ، وهي التي تمتلك الكمال المطلق ، الربوبية ، الحقيقة العليا الوحيدة الصادقة . وارسطوطاليس توصل إلى نفس الاستنتاج ، الحد الفاصل الذي أفلت منه في هذا العالم . . أن يستمر في تسييره بتناقص جميل . .

ما بين الوهية متنفذة في القسم العلوي من الطبيعة ، التي كما يقول عنها : موجودة ككائن أبدي ، ساكن ، لا تدركه الحواس ، وبين هيئة عالم المادة . وفوق السُّلم الخلفي ، دعت ازدواجيته الداخلية للعالم ، الإله الذي سبق وأن

طردته منها ، إلى العودة للدخول ثانية .

والسؤال : فيم تؤثر هذه الألوهية على الإطلاق ؟ وإله ارسطوطاليس يفكر تفكيراً خالصاً في ذاته فقط . إنه لا يعرف عن العالم شيئاً . وهو - كما هو الشأن لدى افلاطون - الأزلي الأوحد ، ساكن في ذاته . إلا أن الأشياء كلها تفنى قبل أن تتمكن من الوصول إليها . وهذا الإله ، ككمال مطلق ، وكما لا يمكن أن يكون شيئاً آخر لدى اليونان ، ساكن لانهائي . هو في حالة الاستقرار الثابت والاكتفاء الذاتي والسكون الذاتي ، إلا أنه هو الذي يحرك الأشياء : ليس بصورة نشطة ، وعلى الأغلب يحركها بمفرده من خلال تكوين الهدف من طموحها الشهواني .

وعلى أقصى تقدير هنا ، يجب علينا أن (نتحرر) من تصوراتنا كي يتسنى لنا تعقب مسيرة هذا النمط الغريب من التفكير :

إن الحركة هنا تنشأ عن العجز فقط ، وعدم الاستجابة . وفور بلوغ الهدف ، أي تحقيق الغاية ، تتلاشى الحركة . وهذه الحركة ، ليست تياراً مستمراً كالكهرباء كما يروق لنا أن نتخيل ، سيل مستمر . إن (الحركة) لدى ارسطوطاليس ، هي مجرد انتقال من نقطة سكون ، إلى نقطة سكون أخرى . « إن لكل حركة كما يقول - هدفاً وحدوداً ، فيها تنتقل من الحركة إلى السكون ، كما تحتاج ثانية الى دفعة جديدة لاستئناف الحركة . . إلى علة للغاية .

إن الحركة ، الفعل ، التصرف ، يصعب علينا أن نحكم استكمال وصفها بعده - إنها لا تفهم من قبل هذا اليوناني في واقع الأمر كممارسة ، بل ككون - متحرك ، متعاطٍ كسلبية في مواجهة سبب ما لا يكمن فيه . وهي الشرط المسبق لنتيجة متحصّل عليها . إن « الحركة » ، يقول ارسطوطاليس ، تبدل كيف الى كيف آخر ، ومع ذلك فهذا التبدل لا يشبه مجرى حادثة كما هو الشأن بالنسبة لنا . هو تبدل دون نشاط ، دون حركة ، داخل الذات وخارجها . وعلى هذا النحو صيرورة الطبيعة أيضاً . إن الكون محدد بثبات ، وحيث أن سائر الخلائق تتكون من صيغ ثابتة ، جاهزة . فلا شيء يصبح

جديداً . إنما ينشأ فقط ما كان في الأصل موجوداً . وكما ينطبع شكل المادة من الخارج ، هكذا أيضاً يأتي كل شيء من الخارج متحركاً . من الأعلى .

وهنا يتكرر الاستنتاج اليوناني ثانية عن الصفاء وغير الصفاء ، أو الأصالة وغير الأصالة : الفوقي والسفلي . إنشاء السقوط . مدُّ سُلَم من عالم القيم العليا في السموات العلى إلى السفلى . ولا بد لكل متحرك وحادث من خلفية في هذا النمط من التفكير ، أي محركاً ، حتى لو لم يكن هذا المحرك بالمفهوم السببي ، بل هو أشبه بإثارة العشيقة لعشيقتها وهي قابعة ، تشده بجملها الأخاذ. إليها .

ولهذه المقارنة مغزى عميق . ان العلاقة الأزلية مع الجنس الآخر غير قابلة للانفصال دائماً عن معاشية سلوك الفرد من الالهية . لأن علاقة المرأة والرجل لها تعليل غيبي في كل الخلق الانساني . وهو يطابق في (تركيبه) علاقة الانسان بالعالم ، والقدر ، وما هو الهامي . وفي حوض البحر المتوسط - اليوناني ، يتفشى الحب بين الجنسين في توتر واسترخاء ، شهوة ورضا ، شوق وإشباع . تنطفئ جذوته حين لا يقوم حافز جديد بإثارة الرغبة ، مثلما تقتضي الحركة لدى ارسطو دفعاً جديداً من نقطة الى أخرى ، لا ينبغي لها أن تفر حيناً .

إن الله ، السبب الهدف ، المحرك الذي لا يتحرك ، هو وجود سرمدي قائم . لكن قوته المؤثرة المؤثرة في التحريك تتناقص طبقاً لبعده المسافة .

إن الأجسام السماوية الدائرة في فلكه أبداً ، شديدة الانقسام ، لكنها لا تتحرك . وقد توصل ارسطوطاليس الى هذا الاستنتاج بطريق الحدس وكما يلي : حين يحدث وتتحرك ، فلا بد أن تكون تلك الحركة عنيفة ، لأنها حركة تخص الأرض ذاتها ، وإلا لكان لكل جزء من أجزائها حركته الخاصة به . والحقيقة أن كل ما هنالك ، يتحرك في خط مستقيم نحو مركزها . إذن فمن غير الممكن أن تكون تلك الحركة سرمدية (كحركة الدوران وحدها) ، وبالنظر لكونها عنيفة ومخالفة للطبيعة . ومن ثم تتم الحركة الطبيعية ، كليتها وجزئياتها ، في وسط الكون . لذا فهي تستقر بشكل عملي في نقطة الوسط . ولعل السؤال الذي يفرض نفسه : طالما أن نقطة الوسط لكليهما - الأرض والكون - واحدة ، فلائي

منها تتجه الأشياء الثقيلة وأجزاء الأرض تبعاً لطبيعتها : نحو الوسط ، باعتبار أنها تشكل نقطة الوسط من الكون ، أم إليها ، طالما أنها نقطة الوسط من الأرض ؟ إنها تتجه - بكلمة واحدة - نحو نقطة الوسط من الكون . لأن الاجسام الخفيفة والنار تتحرك في الاتجاه المخالف كالأجسام الثقيلة ، وبالأصح ، حتى أقصى نقطة تحيط بالوسط . إنه إذاً من قبيل الصدفة أن يكون مركز الأرض والكون هو ذات الشيء ، وبذلك تستخلص النتيجة : لا بد وأن الأرض تقع في نقطة الوسط وبشكل سافر . وأن تكون ثابتة ، وللاسباب الموضحة ، ولأن الأوزان المائلة المقذوفة الى الأعلى تعود فتسقط ثانية في نفس النقطة ، حتى وإن قذفتها القوة بعيداً وبلا حدود . ويتبين مما سبق ذكره ، أن الأرض لا تتحرك ، وانها لا تقع بعيداً عن نقطة الوسط . لقد وضع ارسطوطاليس نفسه - كمعلم للمنطق والجدل - وهو الوحيد الذي حَكَمَ العقل وحده ، فاتخذ القوانين المنطقية المجردة وسيلة لتأمل الله والعالم ، وضع نفسه موضع الشك من قبل الكنيسة . وبعدما ترجمت أعماله عن الغيب من العربية الى اللاتينية من قبل العرب واليهود بعد عام ١١٥٠ واحدة تلو الأخرى ، ولاقت انتشاراً ، خاصة بتعليق الفيلسوف المسلم ابن رشد ، صبت الكنيسة جام غضبها على ارسطوطاليس في عامي ١٢١٠ و ١٢١٥ ، وحرمت دراسة هذه المؤلفات في عام ١٢٣١ ، على أن ذلك لم يستمر سوى وقت قصير ، وبعد أن نجح قادة الجماعة الدومينيكانية والفرنسيسكانية في ثني عزم الكنيسة . ومن صفوف هؤلاء ، خرج شارحون ، تمكنوا من إخراج اليونانيين من عزلة الاحاد إلى أعلى سلطة في العالم المسيحي . وما لبث بعد وقت قصير أن كافأ من كان إلى عهد قريب مهذور الدّم ، كيوحنا المعمدان (و) بشيراً للمسيح ، أجل ، رأوا فيه خير مجسد للصدق الفلسفي المطلق .

وواقع الأمر ، أنه من أجل تسخير هذا الفيلسوف الوثني لفائدة اللاهوت المسيحي ، كان لا بد من الترغيب فيه . ولقد شاع بنوع خاص ، أنّ السبيل للتحصين من عدوى الفكر الإسلامي ، تجميع القوى العقلية الدفاعية وتسليحه بما يحول دون الغواية .

وبتناقضاته الساذجة تلك ، انحنى اليوناني بقدر كافٍ ، لجعله يثني تحت هياكل الفكر المسيحي .

إن أجمل فصل بين صيغة الكمال واللاكمال في عالم المادة هو الارسطوطاليسية ، وخصوصاً الازدواجية اليونانية ، والصفاء المطلق والاختلاط غير النقي . ولقد رأينا مثل ذلك في الازدواجية المسيحية لإله الخير المطلق وعالم الخطيئة . كم أن هذا التقسيم المزدوج للارسطوطاليسية ، شابه الفصل المطلق للحياة الأخروية ، العلوية والدينيوية الأرضية المكتظة بالنقائص . وكل ما هنالك قابل للقسمة بعمق ، وتلقى بينهما العداوة بلا أمل للتوفيق : الله والعالم ، الروحي والدينيوي ، الروح والجسد ، الرجل والانثى - لقد تعلموا ذلك من أوجستينوس أساساً .

إن جميع تقييمات أفلاطون التي انهمك فيها ، ومعه ارسطوطاليس ، الذي تربطه به قرابة الفكر ، مع بعض التحفظات ، كفكرة الحيز^(١) : كان لا بد وأن تحظى ببناء فكري ذي شهرة مرموقة ، تكن احتراماً لللاهوت ، ويتمكن بها اساتذه الكنيسة من إقامة صرح تعليمي منهجي منظم مضمون .

ولتحقيق هذا الغرض ، كان لا بد أيضاً ، من خلق انسجام بين الماديات ، قلبُ اسلوب التفكير عند الضرورة لصهرها في بوتقة واحدة ، لمؤاخذتها ، كما يحرص المرء على تسمية ذلك .

إن ذلك ، كان يفترض ، في نظر ارسطوطاليس ، التجرد الكامل ، الباهت ، وافترض في جميع التصورات شكلاً ، معزولاً ، لا ملامح ناطقة في صورة (المحرك الأول) الذي عمل على جعل كل شيء يتحرك ، كما هي الشأن في الخالق المسيحي ، الذي خلق كل شيء ونفخ فيه من روحه نفس الحياة .

ولقد أصبح البرشت فون بولشتيدت ، والذي عرف باسم البرت الكبير (١١٩٣ - ١٢٨٠) ، وتوماس أكوين (١٢٢٥ - ١٢٧٤) ، أصبحا أكبر

(١) راجع الصفحات السابقة .

ناشرين ورئيسي تحرير لأرسطوطاليس، وقد اكتسبا بمؤلفاتهما حول الارسطوطاليسية، جمهوراً مهيباً حتى نهاية القرن ١٦. هذا بالإضافة إلى نفوذ، ما كانا ليحلم به بدونهم إلى جانب الكنيسة أما الأول، فكان المانياً. ولد في لاوينجن من منطقة شفاين. والآخر ولد في حصن يقع بين روما ونابولي، في بيت احد الاشراف. النورما - ايطالية، وكان في خدمة القيصر فريدريك الثاني الذي تربطه به قرابة بعيدة وهذان الاثنان، كانا عضوين في طريقة دينية دومينيكانية، اسست لغرض الوعظ (وهداية) الملحدين. ولقد ألقت الدراسة، وطريقة الحياة التي سلكاها مع الصبية في الجمعيات الدومينيكانية - ودورها التعليمية الفلسفية التي اسسها، الفت بينهما في نهاية المطاف.

كان ألبرت الكبير - كمدرس للاهوت - مصباحاً فكرياً، جذب اليه الطلبة أفواجا، الأمر الذي حمله على إلقاء محاضراته في الساحات العامة والهواء الطلق بدلاً من الحجرات الضيقة. وهنا تحول توماس الشاب إلى تلميذ متحمس، يكن لاستاذة احتراماً كبيراً. وبدأت علاقة وثيقة قلما تتوفر بين تلميذ واستاذ. وتواصلت العلاقة في مدينة كولن، حين استدعى أصحاب الطريقة، تلك الشخصية الفذة ليكون على رأس حلقة دراسة عامة مستجدة.

وكذلك كانت الحال بالنسبة لتوماس الذي، جعل من الارسطوطاليسية، التي أسسها البرتوس ماجنوس بشروحه وتحريفاته التي هزت التاريخ، أي الصهر المسيحي للغيبيات الارسطوطاليسية، جعلها أكثر منطقية وجلاء، المانية عميقة الغور، وشخصها في شكل متكامل، منظور، ومنتظم. فيما جنحت عرقته الايطالية نحو الوضوح والاجمال والصيغة الكاملة، ودنو طبيعته الكبرى من الأبطال اليونان. وتعد براهينه الخمس الشهيرة على الالهية مما يعجز عنه التعبير، بلى لأن مجرد التفكير باثبات وجود الله بحجج عقلانية، لأنه - البرهان - لا يقنع العقل بشكل مباشر.

وبمنطق متشدد، يشبه تماماً طريقة تفكير ارسطوطاليس، ومفاهيم وتعاريف أكبر معلمي فلسفته، أورد توماس هذا المقطع الرائع من السبك

العقلاني : « كي لا تضطر الى التقدم نحو اللانهاية ، وحيث ان شيئاً لا يتحرك من تلقاء نفسه ، بل لكل شيء شيء يحركه ، فلا غنى عن محرك أول . ومن هذا يفهم الجميع أنه الله . وحيث أن لكل شيء سبباً ، وأن الانسان - وهو احدى حلقات هذه الأسباب - غير قادر على المضي قدماً في اللانهائي ، فمن الضرورة أن نعتقد بأن ثمة سبباً مؤثراً : الله . وحيث أن كل ما هو ضروري ، يستمد ضرورته من شيء آخر ، وأن الانسان لا يقدر على المضي حتى آخر الشوط ، فلا بد من وجود ضرورة تلقائية تبرز بذاتها : الله ! ومن تحديد اللانهاية لحلقات السلسلة هذه ، التي تستوجب التفكير منه ينتج : رابعاً ، أن أفضل وأذكى كائن موجود فعلاً ، هو ما نطلق عليه اسم الله .

على هذا النحو مضى فون أكوين في اتخاذ الفلسفة مطية للآهوت ، وذلك باستعمال صيغ قوانين المنطق الأرسطي بمثابة مادة للتنظيف ، وتوظيفها لمؤازرة ومساندة حاجات التعاليم الكنسية ، للتسلح ضد الحجج المضادة ، ولتعرية الحجج العقلية للملحددين . غير أن من البديهي أن لا يبقى ، في بيت ومجتمع الحاجة هذين ، غالب أو مغلوب ما بين العقائد المساوية والفلسفة . فهل رأى ارسطوطاليس في القرون المسيحية الوسطى شهباً لذاته ؟ أو لم تطمس الشروح العربية - الإسلامية في شخص ابن رشد الملامح اليونانية في وجهه ، في حين خلّفت الثروة الفكرية لاوغسطينوس والأفلاطونية الجديدة فيه آثاراً عميقة ؟

وماذا كان على الطبيعة أن تنتظر من ارسطوطاليس القرون الوسطى ، درب اللسان هذا ، الذي وقف منها - الطبيعة - موقفاً انقسامياً جلياً ؟ كافلاطون تقريباً ! كيف تبدو الطبيعة في نظره ؟ وبدون أوغسطين أيضاً .

إنه - خلافاً لأفلاطون - وإن كان يدعو إلى تجربة الوقائع بدقة ، ويجمع أيضاً كثيراً من الحقائق الفردية ، إلا أنه لا يتقيد شخصياً بنصيحته مطلقاً . ففي تأملاته للطبيعة ينساق خلف رؤاه الغيبية أكثر من الحقائق ذاتها . ولا ينتظر منه غير ذلك لأن معرفته بالطبيعة تمر عبر مُصَفٍّ هو منظار الفلسفة الطبيعية . وهكذا فهو يضمّن الظواهر الطبيعية ، طبيعةً معينة ساكنة فيها ، قُدمت إليها

من خلال الأشكال . كالجمر مثلاً ، أعطاه طبيعة أرضية جعلته يرتقي عليها ، لأنه - الحجر - يشتاق وبصبر فارغ الرجوع إلى موطنه . أو كما أعطى النار - التي تدني بلهبها المتصاعد لطبيعتها الهوائية ، التي يشدها الحنين الى أعلى ، وطنها في السماء . ولأنّ الخشب - هكذا يقول الفيلسوف ، وكما أطلق عليه العالم القديم - تقديراً له ، حسب إمكانيته حاراً ، فلا يمكن إلا أن يصبح حاراً حين يخرج من إهابه إلى الواقع .

وهذه (الصيرورة) ، كسائر الحركة ، لا تريد على كونها مرحلة انتقالية من الامكانية نحو الحقيقة . في حين أن الحركة التي تحتل حيزاً ، تحتاج إلى محرك جبار ، يسهر على تأمين هذا الشيء تبعاً لعلاقاته الممكنة نحو الهدف المطال ، بواسطة الواقع والصدام من جهة ، ومن جهة أخرى بواسطة الجذب من حواشي الهدف أو الغاية ، فلا بد للمتحرك من محرك .

ولنذهب بعيداً جداً . فلدى السؤال عن القوانين والعلاقات الكمية والعددية المدركة ، فإنّ ما يهم ارسطوطاليس هو العلاقات والارتباطات الكمية ، الملموسة ، الملوّنة من أجل تفسير حادثة ما . وهذا أيضاً نمط يوناني - اوسطي خاص . إنها لا تستفسر عن ماهية الأشياء ، مركباتها ، فمعناها بالنسبة له لا يكون إلا بقياسها بشيء آخر . إنها لا تصب اهتمامها على الكائن ، بقدر ما تهتم بالعلاقات النوعية ، كالمودة ، والصدقة ، والحنين أو النفور . وقد عبر الفيلسوف الفيتاغوروتي (نسبة الى فيتاغورت) عن ذلك بقوله : إن الفكر اليوناني يستجلي حقيقة الأمر (الأشياء) في علاقاتها مع ذاتها ، وعلاقة الواحد بالآخر واليوناني ميّالٌ إلى المقارنة الدقيقة ، وإلى التفريق والتحديد وتصنيف الاضداد . وارسطوطاليس كذلك : معرفته بالأشياء تركز على وشائج الاتصال والتفاعل بينها ، أي على القربى أو التضاد . على تجاذبها وهيمتها . وتلعب - في هذا السياق - العناصر الأربعة ، وهي النار ، والهواء ، والماء ، والتراب ، التي ترجع في الأصل إلى امبيدوكلس Empe dokles ، تلعب دوراً ، تُصنّف بطريقة أو بأخرى مع الأزواج المتنافرة : البرودة والدفء ، الجفاف والرطوبة . ولعل النظريات السبع الآتية بصفة خاصة ، هي التي اربك بها ارسطوطاليس العالم

القديم واسدى له بها خدمة ثنته عن العثور على ذاته ، وعن التوصل الى رؤية ذاتية للطبيعة ، وعن العثور على الطريق الموصلة الى العلوم الطبيعية :

١ - الإزدواجية بين الهيئة والمادة ، المادة الناقصة التي تظل بالاتحاد مع الشكل خليطاً غير صافٍ وغير مكتمل وملازمة للقصور ، وتبقى منفصلة أبداً عن الهيئة النقية .

٢ - إن القسمة المزدوجة للكون إلى طبيعتين من مستويات متباينة ، تخضع لقوانين مختلفة : السماء غير الفانية ، غير الناشئة من غيرها ، التي تتحرك بفضل قربها من المحرك الذي لا يتحرك ، باعتدال وبلا عنف ، وإلى نطاق الأرض الرابض في عمق نصف السماء السفلي ، والذي نظراً لبعده الساحق من مشيئة الله ، لا يحظى بنصيب من الحركة ، والذي لا تؤثر فيه سوى الحركة الضارية .

٣ - ونموذج هبوط سائر الموجودات على سلم القيم والسببية من الأعلى نحو الأسفل .

٤ - وعقيدة الشكل المثالي للكرة ومدار سائر الكواكب وآفاق النجوم ، وقشور الكرة الأرضية (اليابسة) التي احصاها أرسطوطاليس بـ ٤٧ .

٥ - مفهوم (الحركة) ، كمرحلة انتقالية من نقطة سكون الى نقطة سكون أخرى .

٦ - تصور العناصر الأربعة ، حنينها ، تعاطفها ، واواصر القربى بينها .

٧ - تفسير مجرى الحدث ، لا من ذاته ، بل من خارجه ، انطلاقاً من الأهداف التي بلغها « المحرض نحو الغاية » .

وقد اصبحت هذه النظريات العلمية ، إضافة إلى القوة الفارضة ، التي مارسها هذا اليوناني ، بفضل الزواج السعيد الناجح ، بين الازدواجية المسيحية واليونانية على العقل الأوروبي ، أصبحت منذ القرن 12 ، أمراً استبدادياً ، مباركة كنائسياً ، ومدعومة فلسفياً ، وعلى وشك أن تصبح متصلة عقائدياً ،

ومن عواقبها الوخيمة ، أن كَوّنت عائقاً فريداً من نوعه في وجه ميلاد علم
طبيعي أصيل . وإنما أصبحت تستدعي ضرباً آخر من التفكير ، يلقي بها جانباً
ويستبدلها بمنظور آخر .